علاقة الإسلام بالغرب في رأي المستشرق البلجيكي هنري بيرين
- دراسة نقدية لكتاب محمد وشارلمان -

د إكرام الحق يس*

ABSTRACT

Henri Pirenne's Methodology in His Work on the Last Prophet's Biography

Henri Pirenne (1862-1935) is one of the well-known writers from Belgium who are known for their calculated bias and inimical approach to Islam and the Last Prophet (s.a.w). In his work on the Last Prophet's biography he has offered a new interpretation of the evolution of Europe from the time of Constantine to that of Charlemagne, claiming that it was the advance of Islam rather than the Germanic invasions and their military victories that caused the break with antiquity and the consequent decline of Western civilization in the Middle Ages. He virulently blames Muslims for their invasions of Europe and calls them looters and plunderers who changed all the trade-routs, whereas he praises the Germans for their invasions because of their loyalty to Christianity, Pirenne concludes that the Islamic onslaught was fast and massive in terms of territory and power; that in less than 200 years the Mediterranean was completely in the hands of Islam: and that Arabian/Syrian/Egyptian and African trade was consequently ceased. He is of the view that it was only the rise of "Mohammedanism" which made Charlemagne succeed effectively in creating his empire . This article attempts to analyze critically the claims of Henri Pirenne in his work.

المؤرخ البلجيكي هنري بيرين (٢٣ ديسمبر ١٨٦٢-٢٥ أكتوبر١٩٣٥) ولـــد في مدينة فير فيربي(Verviers, Belg)، وتوفي بمدينة أوككلي(Eccle) بالقرب من برسلز. درس في جامعات ليبزغ(Leipzig)، برلين(Berlin) وجامعة إكول دس هاتيز في باريس (the École des Hautes Études) حتى أكمل الدكتوراه في عـــام ١٨٨٣ بجامعـــة

* د إكرام الحق يس، أستاذ مساعد بأكاديمية الشريعة، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد.

ليغ(Liège). تخصص بيرين في دراسة التاريخ الاقتصادي للقرون الوسطى حيث أعد رسالة الدكتوراه تحت إشراف غود فرايد كورث(Godefroid Kurth) خبير تاريخ القرون الوسطى وباول فريدرك (Paul Frédéricq) مؤرخ الدول الدنيا. اشتهر بيرين على وجه خاص بالكتابة حول مدن القرون الوسطى، حتى عُدّ رائدا للمؤرخين البلجيكيين، وله تفسير فريد من نوعه لتطور القومية البلجيكية في العصور الوسطى . عمل بيرين مدرّس التاريخ بجامعة ليغ (Liege) لمدة سنة (١٨٨٥ – ١٨٨٦م)، ثم انتقل إلى جامعة غنت (Ghent) ليعمل أستاذا من عام ١٨٨٦م إلى ١٩٣٠م. وأثناء هذه المدة بدأ بتأليف أطول كتاب له "تاريخ بلجيكا" فصرف فيه ٣٢ عاما من الزمان (١٩٠٠م ــ ١٩٣٢م) حتى أكمله ٧ مجلدات باللغة الفرنسية. وظهرت له خلال هذه الفترة كتابان آخران هما " تاريخ أوروبا " الذي ألفه في السجن الألماني بعيدا عن المكتبات والأراشيف. وكان قد سجن هناك (١٩١٦- ١٩١٨) بعد احتلال ألمانيا لبلاده وقيادته لحركة مقاومة لاعنفية ضد قوات الاحتلال خلال الحرب العالمية الأولى(١٩١٤-١٩١٨). وجاء كتابه هذا مظهرا لتحول واضح في فكر بيرين إذ نحا فيه منحى جديدا في دراسة التاريخ الأوروبي، فكُتب له القبول والشهرة بين بني قومه. والكتاب الثاني الذي ألفه خلال هذه الفترة، وبعد خروجه من السجن الألماني، كان"مدن القرون الوسطى: أصولها والنهضة التجارية"(١٩٢٧م)، وهو عبارة عن سلسلة من محاضراته في عام ١٩٢٢، ثم تجلت فكرته بوضوح أكثر و برزت كفرضية منفردة لم يسبقه إليها أحد، فجاء كتابه" محمد وشارلمان"(١٩٣٧م) تعبيرا واضحا عن فرضيته الجديدة. اشتهرت فكرته بـ"فرضية بيرين أو فكرة بيرين"ومن أبرز ملامحها: البحث عن أصول تشكيل الدول الارتكاسية والتحويلة التجارية في العصور الوسطى، نظرته المميزة لتاريخ بلجيكا في العصور الوسطى، وتصويره لمخطط ظهور المدينة في العصور الوسطى.

تحول فرضية بيرين حول تكوين البلدان الأوروبية:

لعل أول ما ظهر من كتابات بيرين حول تاريخ مدن أوروبا كانت مقالاته التي نشرت[١] في عام ١٨٩٥م، وكانت بطبيعتها تاريخية بيانية كما يكتبه عامة المؤرخين. ثم عندما سُجن في ألمانيا وتحمل الشدائد طرأ تطور مفاجئ في فرضيته حول تشكيل هذه البلدان، فانهار اعتقاده القديم بأن تطور الإنسانية محتوم، وبدأ يتكلم عن العلاقة بين الفرصة والتاريخ، وكذلك بين الصدفة والتاريخ. ومن هذا التحول نشأ لديه اعتقاد بدور الأفراد العظماء في مراحل معينة من

التاريخ، فبدأ ينشر آراءه من خلال سلسلة مقالات ظهرت بين عـــامين ١٩٢٢ و١٩٢٣م، ثم بذل بقية حياته في تنقيح فرضيته وعرض أدلة عليها. ظهرت معظم تفسيراته الجديدة في كتابيه الأخيرين"مدن القرون الوسطى: أصولها والنهضة التجارية"، و"محمد وشارلمان"[٢]. وكان مـــن بين النتائج التي توصل إليها بعد دراسته للحركات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينيـــة ذات الجذور الفكرية العميقة، الطويلة البقاء، أنها كانت ناشئة من أسباب تأسيسية عميقة. غالبا ما تتعارض تفسيراته الجريئة مع الأفكارالتقليدية. وسوف نحاول في السطورالتالية إبراز هـــذه الفرضية بإيجابياتها وسلبياتها من خلال كتابه"محمد وشارلمان" إن شاءالله.

ظهور كتابه محمد وشارلمان:

ألف بيرين"محمد وشارلمان" باللغة الفرنسية، حتى صدرت طبعته السادسة (بـــاريس- بروكسل) سنة ١٩٣٧م. ثم تتابعت طبعاته حتى ترجمه برنارد ميال إلى اللغة الإنجليزية، معتمدا على الطبعة الفرنسية العاشرة. ظهرت الطبعة الإنجليزية الأولى في عام ١٩٣٩م[٣]. قسمه المؤلف إلى جزئين، كل منهما يحتوي على ثلاثة أبواب. ويدور الكتاب حول الفكرة القائلـــة بـــأن: "نهاية الإمبراطورية الرومانية والعالم القديم تعود للفتوحات الإسلامية أكثر منـــها للغـــزوات الألمانية".

ولقد أطلق المؤلف على الجزء الأول من الكتاب عنوان: "أوروبا الغربية قبل الإسلام" وتناول فيه ثلاث جهات لهذا الموضوع : أولها استمرارية حضارة البحر الأبيض المتوســـط في الغرب رغم الغزو الجرماني، واحتلاله لعدة مناطق منه. فبدأ بتوضيح مطلبه ببيـــان تشـــكيلة الامبراطورية الرومانية، وعدها مشتملة على المناطق المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط في الغالب. بسط المؤلف القول حـــول فكرتـــه هـــذه تحـــت عنـــوان: Romania before the Germans"رومانيا قبل الجرمان". ذكر المؤلف بأن غرب الامبراطورية كان محاطا بالإغريق، في حين أن جانبها الشرقي كان يحتوي على المناطق اللاطينية إلا أنه أصر مع ذلك على فكرته قائلا: ورغم ذلك فإن حيثيتها البحر متوسطية هي التي منحت الوحدة لجميع هذه المنـــاطق، وهذا الوضع فرض نفسه على جميع مناطق الإمبراطورية[٤].ثم تطرق من خلال ذلك إلى القـــول بأنه في الأزمان المتأخرة من عصر الإمبراطورية نجح الجرمان في بسط تأثيرهم على الحدود حتى أصبحت الحدود ألمانية من ناحية الدم ولكن هذه الألمنة لم تؤثر في طبيعة تشكيلة الإمبراطورية،

لأن جميع الجرمان الذين دخلوها ما لبثوا أن اصطبغوا بالصبغة الرومانية[٥].وخلاصة ما بسطه في صفحات عديدة كالتالي:

في القرن الخامس وقعت الجهة الغربية من الإمبراطورية الرومانية بأيدي الغزاة الجرمانيين[٦]، ولكن الإمبراطورية ككل صمدت في وجههم إلى قرنين آخرين من الزمان[٧] حتى نجح الغزاة من احتلال رومانيا نفسها، فالتسلط الجرماني تقيد في السلطة واللغة أما الفكر والحضارة فبقيا رومانيين إلى قرون من الزمان، قال بيرين: "ليست هناك فكرة أخطأ من الزعم بأن فكرة الإمبراطورية غابت بعد فصل البرابرة للأقاليم الغربية منها[٨]. وبذلك يزعم المؤلف أن الفتوحات الجرمانية لم تؤثر على حضارة أوروبا، بل دامت هذه الحضارة مؤثرة سائدة في قلوب الناس وفي المجتمع رغم سيطرة الجرمانيين عليها إداريا وسياسيا.

والجهة الثانية التي تناولها المؤلف في هذا الجزء من الكتاب، هوالوضع الاقتصادي والاجتماعي بعد الغزو الألماني لمنطقة البحر الأبيض المتوسط. فحاول إثبات وجهة نظره في ذلك، وهو أن الوضع الإقتصادي رغم غزو الجرمان للمنطقة لم يتغير وظلت الطرق التجارية كلها سالكة عبر البحر الأبيض المتوسط. وكذلك زعم أن الحروب والخلافات بين الشعوب المسيحية لم تؤثر في عقيدتهم وديانتهم، فظهرت نتيجة بحثه في الجزء الأول من الكتاب أن الغزو الجرماني للمنطقة أجرى بها تغييرات سياسية وعرقية، ولكنه لم يمس الحضارة الرومانية والعقيدة المسيحية بسوء، وهكذا أكمل الجزء الأول تمهيدا لما أراد فصل القول فيه في الجزء الثاني. وفيما يلي اقتباسات من كتابه مع التحليل:

ركز المؤلف على توضيح أهمية البحر الأبيض المتوسط في حق الإمبراطورية الرومانية العظمى، فقال: " ومن بين جميع ملامح ذلك الهيكل البشري العجيب، أي الإمبراطورية الرومانية، الأكثر لفتا للنظر، والأهم نموذجيا ومثاليا، كانت ميزتها البحر أوسطية ".... ثم واصل قائلا:"ولقد كان البحر بالنسبة لهذه البلاد نقطة مركزية لجميع المنافع- بمعنى الكلمة- وإنه كان مركبا للعقيدة والديانة والتجارة....وكانت الحياة آنذك متمركزة على شواطئ البحيرة العظمى. وبدون ذلك لم يكن القمح الإفريقي ليصل إلى روما....فإن القوافل التي كانت تأخذ طريقها من خلال أقاليم الإمبراطورية إلى روما، كانت تتجمع على البحر[الأبيض المتوسط]. وكلما تحرك مسافر من هناك وجد البلاد تزداد رونقا و رقيا وحضاريا"[٩]. ومن الناحية السياسية يبين بيرين أن أوروبا الغربية كانت تتبع قسطنطينية التي كانت مدينة متقدمة

وزاهية، وقاعدة بحرية مهمة في شرق البحر الأبيض المتوسط، حيث تتوفر فيها المنتجات والوسائل الترفيهية بما فيها الحرير والبهارات، ومما قال في ذلك: " شكرا للبحر الأبيض المتوسط، أي لتشكيل الإمبراطورية في نمط جلي واضح، وتجارة موحدة"، وقال أيضا: "إنها كانت منطقة موحدة عظيمة، وجدت هناك رسوم عبور الطريق ولكن لم تكن فيها نقاط جمركية. وكان من مظاهر وحدتها العملة الموحدة، الصلدوس الذهبي القسطنطيني بوزنها ٤.٥٥غراما من الذهب الخالص، الذي كان متواجدا متوفرا في كل مكان" [١٠].

يعترف بيرين بأن البرابرة الجرمان احتلوا مناطق من الإمبراطورية الرومانية ولكنه رغم ذلك يصر على أنهم لم يمسوا وحدة حوض البحر الأبيض المتوسط بسوء فيقول: "في القرن الثالث، وبسبب الاضطرابات المدنية كانت هناك بعض الانشقاقات في الحوض، والتي تطورت فيما بعد لتصل إلى نوع من الثغرات والكسور. ونتجت من ذلك غارات فرنكية، وألمانية،وقوطية من جميع الجهات،فخربوا غاليا، ورهايتيا(Rhaetia)، وبانون (Pannone)، وتراسي (Thrace)، وظلوا آخذين في التقدم حتى وصلوا إلى أسبانيا. وكانت البداية أن قواد الجيوش الإليرية(Illyria)الجزء الشمالي من البلقان دفعوا البرابرة إلى الوراء و أعادوا تأسيس حدود الإمبراطورية الرومانية". و لكن على الجهة الألمانية من الإمبراطورية لم تكن الحدود الدفاعية تدعو إلى الاطمئنان، وكانت الحاجة ماسة إلى تقويتها. وأما المدن الداخلية للإمبراطورية فكانت مُحَصّنة: والمدن التي كانت مراكز نبض الحياة للإمبراطورية أمثال روما و قسطنطينية فكانتا قلعتين نموذجيتين [١١].وفي كل هذه الاقتباسات نرى أن المؤلف يمدح الاحتلال ولا يراه عائقا في سبيل استقلال الامبراطورية الرومانية في حين أنه أخيرا يصل إلى النتيجة بأن المسلمين هم الذين كسروا شوكة الإمبراطورية باحتلالهم المناطق المجاورة للبحر الأبيض المتوسط . وبذلك جعل من الاحتلال نوعين: احتلال يضر باستقلال المنطقة وآخر لا يضر به. فالاحتلال إذا كان مسيحيا داخل دولة مسيحية فغير مضر لا فكريا ولا تجاريا واقتصاديا. أما أنه إذا كان احتلالا إسلاميا فهو المسؤول عن كسر شوكة الإمبراطورية وشق أراضيها الموحدة، فيا من محقق مفكر يحلل الأوضاع بمهارة فريدة لم يسبقه إليها أحد. وتتضح هذه الفرضية أكثر عندما نأتي إلى قوله في مدح الجرمان الذين احتلوا البلاد: "هؤلاء البرابرة لم يطالبوهم بشيء أحسن من الذي فعلوه بمطالبتهم بالدخول في خدمة الروم.....وجميع هؤلاء الألمان الذين دخلوا الإمبراطورية دخلوها بنية خدمتها و الاستفادة من

ميزاتها. و قد أحس الناس بوضوح بأن البرابرة يحترمون الحضارة. وما إن دخلوا الإمبراطورية إلا و تبنوا لغتها و أيضا اعتنقوا ديانتها:أي المسيحية ثم لم يلبثوا بعد كونهم مسيحيين في القرن الرابع إلا أن تخلوا عن آلهتهم القومية وبارتيادهم المتواصل إلى الكنائس نفسها، اندمجوا في أهالي الإمبراطورية. وفي الأزمنة القديمة كانت تشكيلة الجيش من البرابرة وقد نال كثير منهم أمثال وَندال، وستيليكيون (Stilicho)، والقوط،وغيرهم الشهرة كمجندين إمبراطوريين."[١٢]

تبرير عجيب للغزو الجرماني:

ولننظر إلى تبرير بيرين لغزو الجرمان هذه البلاد إذ يقول : "ولقد كان الهونيون أول اتحاد من الفرسان الريفيين من آسيا الوسطى الذين تقدموا داخل أوروبا في قرني الرابعة والخامسة. دفع الهونيون البرابرة الألمان إلى الجهة الجنوبية داخل الإمبراطورية الرومانية الغربية. وكانت هذه أول مرة يشعر فيها أوروبا بـــشَق هائل خلال الميدان السراميتي (Sarmatic Plain)، وذلك بشكل تجدد مشاجرات بين سكان آسيا الأقصى"[١٣]. ففي رأي المؤلف رغم ذلك كله ظلت الإمبراطورية الرومانية سالمة غانمة من ناحيتها الثقافية، ولم يظهر عليها آثار التغير إلا نادرا. قال بيرين: "ظلت الإمبراطورية الرومانية رومانية كما كانت، كما فعلت ولايات أمريكا الشمالية المتحدة، إذ بقيت على حالتها الإنجلو سكسينية رغم كل ما حدث من الهجرة إليها. وهنا جعل من المحتلين الجرمان الذين قاتلوا الأهالي وتسلطوا على أراضيهم ومواردهم، جعلهم كمهاجرين... ثم يمضي في هذه الفرضية مبررا لها فيقول: والحقيقة أن الدخلاء الجدد لم يشكّلوا إلا أقلية قليلة جدا.... كان عدد سكان الإمبراطورية آنذاك سبعون مليون نسمة....فلم يكن من الجرمان إلا أن تلاشوا في حجم السكان الأصليين . ....، ويمكن أن يقبل وجود مائة ألف ساكن من القوط فإنهم لن يشكلوا وزرا على أهل البلاد... وقد شكل العنصر الجرماني في الأقاليم الغربية خمسا بالمائة من جميع سكان البلاد"[١٤].وهنا يبيح بيرين للأقلية إذا لزمها تحكيم السيطرة على شعب ما أن تحول هوية الشعب إذا لم يكن لديهاسبيل إلى الإخضاع إلا ذاك، ولم يكن هناك طريق لاستغلاله إلا ذاك، ومثال ذلك النورمانيون كما فعلوا في إنجلترا، والمسلمون كما فعلوا حيثما ظهروا، وقد فعله الرومانيون في الأقاليم المفتوحة على أيديهم. وكان الوضع في حال الجرمانيين في الامبراطورية الرومانية مختلفا

حيث لم ينووا أصلا تدمير الإمبراطورية ولا الاستيلاء عليها بشكل كامل. ولقد قاموا بتوسعتها وتكبيرها بعيدين عن محاولة الاستخفاف بها"[١٥].

ومن العجب أنه يعترف بحدوث تغيرات كبيرة في التشكيلة التشريعية والسياسية للمنطقة، ولكن رغم ذلك يرى أن الإمبراطورية الرومانية كانت هي السائدة حضاريا ودينيا وفكريا، فيقول: "وفي آخر الأمر تلاشت جميع القوانين الجرمانية، أو الأحرى أن نقول بأن اختفت جميع المنشآت الجرمانية عندما أسس الملك الوندالي (Genseric) في عام ٤٤٢م الملَكية المطلقة. وكانت حكومته أيضا حكومة رومانية. فضرب نقودا تحمل صورة هونوريوس(Honorius)، (٣٨٤- ٤٢٣)[١٦] ولقد كانت النقوش الكتابية رومانية. ولم تتلاعب حكومته مع الأمور الإقتصادية للدولة ولا تدخلت في حقائق الحياة اليومية للبلد. وبالإضافة إلى ذلك يبدو أن الملك الوندالي استمر بإرسال الهدايا من الزيت إلى كل من روما وقسطنطنية. وعندما أسس الملك الوندالي نظام ولاية العهد لملكه، جعله طبقا للقوانين التشريعية الرومانية"[١٧].

ونراه متحمسا لهذا التعبير إلى درجة أنه سوّد صفحات عديدة من كتابه في ذلك ، ومما قال في تأييد هذا التعبير: " ولا يُتصور خطأ أكبر و أفضح من القول بأن الإمبراطورية اختفت بعد انعزال الأقاليم الغربية على أيدي البرابرة". ويعني أن الإمبراطور في القسطنطينية عدم قدرتها على إدارة الحكومة بعدهذه الأوضاع إلا أنها حافظت على سلطانها المعنوي، وسيادتها في عرف الناس[١٨]. و ذكر من مظاهر هذا السلطان المعنوي أن " الإمبراطورية بدل أن تتلاشى وتضيع وسط هذه الأوضاع الحرجة فإنها على عكس ذلك ظلت صامدة بكيانها، تُعتبر قوةً وحيدةً على وجه الأرض، كما أن عاصمتها قسطنطينية ظلت أعظم مدن العالم من ناحية ثقافتها وتقدمها وازدهارها. وضمت الإمبراطورية جميع سكان أوروبا و أحكمت سيادتها على سياسة الدولة الجرمانية. وبقي تأثير الإمبراطورية كعنصر إيجابي وحيد على مدى التاريخ إلى أن حل القرن الثامن. والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن تلك الإمبراطورية شرقية"[١٩]. وبهذه الطريقة أكد بيرين بأن هجمات القبائل الجرمانية على الحضارة الرومانية لم تكن السبب في انهيار هذه الحضارة كما يراه معظم المؤرخين ، لأنه برأيه لم تكن هناك اختلافات عقائدية بينها وبين الرومان ، ولم يكن هناك ما يثير الجرمان ضد الإمبراطورية سواء

من الناحية الدينية أو العرقية ، رغم أنهم رغبوا بالاستقرار والتمتع بالحضارة الرومانية ، واكتسبوا شرف المواطنة الرومانية ، على الرغم أنهم نجحوا في إقامة بعض التجمعات القبلية التي شكلت أساس الدولة القومية في أوروبة .

حقيقة بروز الديانة المسيحية في حوض البحر الأبيض المتوسط:

والحقيقة غير ما أتى به بيرين، هي أن المسيحية بعد أن أصبحت ديانة معترف بها في الإمبراطورية الرومانية على يد قسطنطين الكبير عام (٣٠٥ – ٣٣٧) م ، بإصداره مرسوم ميلان عام (٣١٣ م) ، وبه تم تنظيم الدولة المسيحية الأولى، وبناء القسطنطينية عاصمة جديدة في (٣٣٠ م) ، وتحولها الى الديانة الرسمية للدولة على يد الإمبراطور ثيودوسيوس عام ٣٩٢م ، لم تستسلم الوثنية مما أدى إلى تقسيم الإمبراطورية عام (٣٩٥م) الى قسمين شرقي مسيحي وعاصمتها القسطنطينية ، وغربي وثني وعاصمتها روما ، لينتهي هذا الصراع الذي أضعف الدولة الى انهيار الإمبراطورية العظمى ، ولكن بيرين حاول إرجاع هذا الانهيار الى هجمات العرب على المراكز الحضارية في أوروبّا[٢٠] .

وكيف استطاع البيزنطيون في نظره إبقاء سيطرتهم على غرب الإمبراطورية؟، يجيب بيرين على ذلك فيقول:"لما كان البحر الأبيض المتوسط قد ظل الوسيلة العظمى للإتصال بين الشرق والغرب فبقاء الأول متفوقا على الثاني كان محتما. إن البحر الذي كان تحت سيطرة البيزنطيين، مكنهم من نشر تأثيرهم في جميع الجهات. ووجدت حضارة ذاك الزمان على طول طرفي البحر من الجهتين الشرقية منهما و الغربية. ولم يكن يُتوقع من الألَمَنَةِ شيء أكثر من ذلك"[٢١]. و كان الاحتمال الوحيد أن يظهر مركز جديد لتشكيل الحضارة تحت ظل الحكم الإنجلو سكسوني، إلا أن هذه الحضارة وصلتهم من البحر الأبيض المتوسط مباشرة. واستمرت التجارة جارية بين الشرق والغرب في القرن السادس الميلادي. وتجاوزت هذه التجارة " استيراد الجواهر و الصناعات القماشية.... وأما السلع التجارية المهمة التي كانت تتعلق بالحياة اليومية، هي التي تمثلت في استيراد التوابل. ولا يمكن الإصرار على أهمية هذه التجارة. فإن الإمبراطورية الرومانية استوردت جميع أنواع التوابل من كل من الهند والصين والجزيرة

العربية....ولم يكن انتشارها عرضة للتدخل من قبل الغزوات الجرمانية. واستمر انتشارها بعد الغزو كما كانت مشتشرة قبلها، وظلت تعتبر جزءا مهما من التغذية اليومية"[٢٢].

"كانت التجارة تحتاج إلى وثائق تحريرية، وكان ورق البردي المستورد من الشرق رشيقا، وكان يُستعمل للكتابة. احتلت مصر وضع المحتكر الوحيد لتوفيرأدوات الكتابة للاستعمال العام على مستوى الإمبراطورية، و أما ورق البرشمان فكان يدخر للمقاصد الخاصة. ولقد استمر العمل الكتابي قبل الغزوات و بعدها على مستوى الشرق كله وعلى وجه سواء. وكان يعتبر ذلك من الحاجات الأساسية للحياة الاجتماعية"[٢٣]. وطلب الزيت في ذلك الوقت كان شديدا، حيث كان الناس يستعملونه للطبخ و للتنوير في الكنائس. ثم ظهرت المصابيح الشمعية، بعد أن جاء الغزو الإسلامي. واشتملت التجارة الداخلية النشيطة على العبيد البيض. فكان التجار يصدرونهم بأعداد هائلة إلى الجهة الشرقية. و شكل البرابرة أكبر مصدر للعبيد"[٢٤]. وليس هناك شيء أكبر شهادة على مواصلة الوحدة التجارية للإمبراطورية خلال العصر المرفنجي، أي بعد الغزوات الجرمانية، من بقاء وحدة العملة النقدية على مدى البحر الأبيض المتوسط. ولقد حكمت السلالة المرفنجية "غالا القديمة" من القرن الخامس إلى نصف القرن الثامن، يقول بيرين: "إلى العنف الذي طرأ في عصر الكارولنجيين، فإن الشرق الإغريقي، و الغرب الذي استولى عليه الجرمانيون ظل كلاهما يخلص الولاء لأصلهما الذهبي الواحد، والذي كان يتمثل في الإمبراطورية. وكان البحارة السوريون لدى سفرهم من خلال موانئ البحر التيريني يجدون عملتهم النقدية التي تعودوها في موانئ بحر إيجة. وبالإضافة إلى ذلك فإن الممالك البربرية الجديدة في ضرب عملاتهم تبنوا التطويرات التي ظهرت في عملات البيزنطيين"[٢٥].

هكذا حاول بيرين في الجزء الأول من كتابه إثبات الجزء الأول من فكرته. ويتمثل هذا الجزء في أن وحدة حوض البحر الأبيض المتوسط ظلت قائمة والسلطان المسيحي ظل سائدا، والتجارة المسيحية مستمرة تحت ظل العقيدة المسيحية التي ربطت بين أجزاء من رفات الإمبراطورية الرومانية رغم احتلال الجرمان الجزء الغربي منها، ورغم تفكك سيادتها السياسية و تدهور تشكيلتها الإجتماعية و تلاشي نظامها الإداري.....وما إلى ذلك من تبريرات خيالية تمهد له الطريق لمهاجمة الإسلام، وليس الإسلام وحده بل نبيه محمدا [عليه الصلاة والسلام]،

مؤكدا أنه كان هو السبب في تمزق هذه الوحدة واضطرار شارلمان إلى اتخاذ سياسة جديدة لإقامة الإمبراطورية على أسس دينية وعرقية و فيما يلي بيان موجز لذلك:

مقارنته الجانحة بين انتشار الإسلام وحملات الجرمان:

بدأ بيرين في الجزء الثاني من الكتاب ببيان مجابهة الاسلام والنظام الكارولنجي، فذكر الأوضاع التي انتشر فيها الإسلام في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكيفية انتشاره، وما ترتب على انتشاره في المنطقة من تمزيق وحدة البلاد التي ظلت صامدة حتى ذلك الوقت رغم سيول الدم التي أجريت بين شعوب المنطقة بقتل بعضها البعض واحتلال أراضيها وأسر أهلها، حتى وصل إلى ذكر السلالة الكارولنجية التي أعانتها الكنيسة على سد طريق الإسلام.

لقد كانت الغزوات الجرمانية إلى الإمبراطورية الرومانية كما يراها بيرين، مجرد هزات هبوطية مقابل التوسعات الانفجارية التي قام بها الإسلام داخل الإمبراطورية الرومانية، وذلك بدأ من القرن السابع. فالغزاة الجرمان عندما وصلوا إلى داخل الإمبراطورية الرومانية، " لم يلبثوا أن سمحوا لأنفسهم الذوبان فيها، وحاولوا بقدر الإمكان الحفاظ على حضارتها والدخول في المجموعة السكانية التي كانت هذه الحضارة تعتمد عليها "، هكذا قال بيرين[٢٦]. ولقد كانت تجربة الإمبراطورية الرومانية مع الغزاة المسلمين مختلفة تماما. ولم تكن هذه الإمبراطورية قد مارست من قبل علاقات مع سكان شبه الجزيرة العربية بكل سعتها. إنها لم تكن قد نظرت إلى شبه الجزيرة العربية كخطر لها، ولذلك لم تجمع لها تجمعات كبيرة من القوات لدى حدودها. قال بيرين: "إنها كانت حدود تفتيش فحسب، حيث كانت تعبرها القوافل التي تأتي لهم بالعطور والتوابل..... ولم يكن هناك شيء يدعو إلى الخوف من بدو شبه الجزيرة الذين كانوا غير آهلين، والذين كانت حضارتهم لا تزال في وضع قبلي، والذين لم تكن ديانتهم أفضل بكثير من الفَتَشِية والبُدِّية، والذين كانوا يقضون أوقاتهم محاربين بعضهم مع بعض أو في نهب القوافل التي تمر من مكة و يثرب (التي أصبحت فيما بعد المدينة) في طريقها من الجنوب إلى الشمال، و من اليمن إلى فلسطين، ومن الشام أو شبه الجزيرة السينائية"[٢٧].

ويبحث بيرين عن سبب ضعف الإمبراطورية الرومانية أمام الحملات العربية فيقول: "من ناحية أخرى فإن الإمبراطورية الفارسية التي كانت تحكمها السلالة الساسانية لم تكن

أيضا منتبهة إلى الخطر العربي. بل وكان الفرس والرومان يتحاربون فيما بينهم في حين أن محمدا(٥٧٠-٦٣٢م) قام بمحاولة ناجحة في توحيد الرحالة العرب، وذلك عن طريق دعوتهم إلى ديانة جديدة، والذين كانوا سيظهرون فجأة في العالم و يفرضون عليه سيطرتهم . ولقد كانت الإمبراطورية في خطر مميت حيث كان العرب المسيحي"جون دمشق"[٦٧٦-٧٤٩م] ما زال يعتبر الإسلام ديانة من نوع طائفة منشقة عن الكنيسة، والذي لن يكون له شأن أكثر من الذي كان للمبتدعين و الهراطقة من قبله"[٢٨]. ويقترح بيرين أن نجاح الحملات الإسلامية كان نتيجة لاستهلاك كل من الإمبراطوريتين الرومانية و الفارسية في محاربة بعضهم البعض. وقد انتصر الرومانيون تحت قيادة إمبراطورهم هرقل(٥٧٥-٦٤١م) على الساسانيين الذين قادهم "شاه فارس" خسرو الثاني في اصفهان(Ctesiphon)"[٢٩].

تغاضيه الحقائق التاريخية:

كيف تغاضى -المحقق التاريخي الفذ، الفائز بأعلى درجة فكرية عند بني قومه- عن الحقائق التاريخية التي مازالت موجودة في سجل التاريخ، لا مجال لإنكارها، وهي أن نبي الإسلام الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كتب كتبه الشهيرة إلى الرؤساء والملوك بمن فيهم ملوك الفرس والروم، ومن ذلك نزول سورة الروم الخالدة، ولكنه يمر من عندها بفكرته الجديدة فيقول: " مات محمد في ٦٣٢م ، وبدأت الحملات الإسلامية بعده بسنوات عديدة. ولقد جيئت الإمبراطوريتان الرومانية و الفارسية بمفاجأة كاملة". ويقول : "إن الأقاليم الفارسية التي كانت لتوّها استسلمت لهرقل، أخذت من الإمبراطورية فجأة. وأما قيصر فكأنه حُكِم عليه بأن يظل مشاهدا عاجزا أمام الانقضاض الأول الذي شنّته القوة الجديدة، والتي كان من نصيبها أن تُربِكَ العالم الغربي و يدفع به إلى الذهول"[٣٠].

وازن بيرين ظلما بين فتوحات الإسلام وبين التي تمت على أيدي جنكيز خان وتيمور لنك رغم اعترافه بزوال إمبراطوريتي المغول بسرعة وبقيت الفتوحات الإسلامية، ولم يذكر الفرق بين التقدميين من الناحية الخلقية ومساهمتهما لرقي البلاد. يقول بيرين: "كانت الفتوحات العربية التي أذهلت أوروبا وآسيا كليهما، غير سابقة المثيل. ولا يمكن مقارنة سرعة انتصارهم إلا بإمبراطوريتي المغول في أطيلا(Attila) اللتين تأسستا على أيدي شنكيز خان و

تيمور لنك"، ثم يضيف قائلا: "ولكن هاتين الإمبراطوريتين كانتا سريعتي الزوال بالقدر الذي كانت الفتوحات الإسلامية دائمة البقاء مقابلهما.....ولقد كان انتشارها السريع مثل الضوء معجزة حقيقية مقارنة بتطور المسيحية البطيء"[٣١].

ثم يأتي بيرين إلى جهة أخرى من فرضيته لكي يثبت تشكيل الدول على أسس عقدية وفكرية فيقول: "جعل العرب جميع أقسام الإمبراطورية المنهارة في قبضة يدهم". وفي عام ٦٣٤م استولوا على الحصن البيزنطي في بُصرَى "، وفي ٦٣٥م سقطت دمشق في أيديهم، وفي عام ٦٣٦م قدمت لهم حرب يرموك جميع بلاد الشام، وفي ٦٣٧ أو ٦٣٨م فتحت مدينة القدس أبوابها لهم، وفي الوقت نفسه شملت فتوحاتهم الآسيوية ميسوبوتاميا(بلاد ما بين النهرين) (Mesopotamia) وفارس. ثم جاء دور مصر ليتعرض للهجوم، فلم تلبث بعد وفاة هرقل(٦٤١م) إلا أن أخذت الإسكندرية، ثم لم يمض كثير من الوقت إلا وتم الاستيلاء على الدولة كلها. و استمر التقدم كذلك حتى هضم مناطق شمال إفريقيا التي كانت تحت سيطرة البيزنطيين"[٣٢].ويأتي هنا سؤال: لما ذا لم يتسرب العرب في أهالي المناطق التي استولوا عليها مثل ما فعل من قبلهم البرابرة الجرمان؟ كانت إجابة بيرين على ذلك : "وهناك إجابة وحيدة على هذا السؤال"، و هي من نوع امتثال خُلُقي. لم يكن لدى الجرمان شيء يدعوهم إلى مخالفة المسيحية، ديانة الإمبراطورية، في حين أن العرب كانوا مُعَبِّئين بعقيدة جديدة. وكان هذا هو السبب الوحيد الذي منعهم من الذوبان في المجتمع، وليس هناك سبب غيره. ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء العرب المسلمين لم يكونوا أكثر تحاملا من الجرمان ضد حضارة الشعب الذي استولوا عليه. وبالعكس فإنهم استوعبوا هذه الحضارة بسرعة عجيبة. إنهم هم الذين تعلموا العلوم من الإغريق، وتعلموا الفنون أيضا من الإغريق والفرس. إنهم لم يكونوا متعصبين في أول الأمر خلال جميع الأحداث، و لم يكونوا يتوقعون تحويل مفتوحيهم إلى دينهم. ولكنهم طالبوا الناس بأن يكونوا مسلمين لله الإله الأحد، و أن يطيعوا رسوله محمدا، وبما ان محمدا كان عربيا، فبالتالي كان لزاما أن يكونوا مستسلمين للعرب. وبذلك فإن هذا الدين كان عالميا و قوميا في آن واحد. إنهم كانوا عباد الله"[٣٣].ثم يقول: "ومن النصف الأخير للقرن السابع جعل الإسلام نصب عينه أن يصبح قوة بحرية في المناطق التي كانت الدولة البيزنطية تحت قيادة القسطنطين الثاني هي القوة العظمى(٦٤١-٦٦٨م)". بدأت السفن العربية في زمن الخليفة

معاوية (٦٦٠م) تجتاح المياه البيزنطية. احتل المسلمون جزيرة قبرص، وبعيدا عن سواحل آسيا الصغرى فازوا بانتصار ضد الإمبراطور قسطنطين نفسه.إنهم اجتاحوا جزيرة رودس(Rhodes)، وتقدموا نحو قريط(Crete)، وصقلية(Sicily)"[٣٤]. إنهم استعبدوا بربر شمال إفريقيا، و أسسوا مدينة قيروان المقدسة في عام ٦٧٠م، والتي تقع الآن في تونس على حوالي ١٦٠ كيلومتر جنوبي مدينة تونس. تكاتف البربر والرومان لدفع العرب إلى الوراء في الثمانينات من القرن السابع، ومن هناك رجعت السواحل الإفريقية إلى البيزنطيين". ويرى بيرين أن العرب عندما يئسوا من اجتياح البحر الأبيض المتوسط بسبب انتصار البيزنطيين، وخاب بذلك أملهم ، ما لبثوا إلا أن اعتدوا على قرطاجنة (Carthage) في ٦٩٥م ثم في ٦٩٨م واحتلوها، وأخيرا استبدلوا المدينة العريقة بعاصمة جديدة على رأس الخليج، وكانت متمثلة في تونس التي قدر لمينائها جوليتا "Goletta " فيما بعد أن تصبح أكبر قاعدة إسلامية في منطقة البحر الأبيض المتوسط. والعرب الذين أصبح في حوزتهم في الآونة الأخيرة أسطول بحري، بدءوا المركبات البيزنطية. و بناء على ذلك تمكنوا من التسلط على البحر"[٣٥]. ومن تونس جمع المحاربون المسلمون البربر الذين تحولوا إلى الإسلام في جيش، وبمعاونتهم فتحوا أسبانيا التي كانت تحت سيطرة القوط الغربيين. ففي عام ٧١١عبر المضيق جيش بربري يقدر بـــ"٧٠٠٠" عسكري تحت إمرة طارق....فتحت جميع المدن أبوابها للفاتحين الذين جاءهم مدد بجيش آخر في عام ٧١٢، والذي نجح أخيرا في الاستيلاء على الدولة كلها.

ويتلخص محتوى هذا الجزء من الكتاب في أن المسلمين هم الذين أغلقـــوا الطـــرق التجارية التي ظلت سالكة إزاء البحر الأبيض المتوسط عبر القرون أثناء الحكم المسيحي علـــى البلاد، وبدلوها بطرق أخرى حسب ما اقتضت مصالحهم. وكان شارلمان ـــ في نظر المؤلف ـــ هو البطل الذي مهد الطريق للنشأة الأوروبية منقذا ما تبقى من الحضارة الرومانية المسيحية من أيدي القراصنة المسلمين. وتلك كانت بداية العصور الوســـطى كمـــا ادعـــاه في هـــذا الكتاب.ثم يتسلل من هذا التمهيد إلى إبداء بطولة شارلمان الذي وقف في طريـــق الحمـــلات الإسلامية وأوقف المسلمين عند حدودهم، وفيما يلي بعض تفاصيله:

دور شارلمان في سد طريق الإسلام وحماية الغرب :

يرى بيرين أن الكارولنجيين استطاعوا حماية الغرب،فلم يستطع العرب مواصلة التقدم داخل أوروبا. ولقد كانت الأسرة الكارولنجية خلفت السلالة المروبجية في عام ٧٥١م، وكان أول ملك للأسرة الكارولنجية هو بيبين الصغير(٧١٤-٧٨٦م)، ولكن الذي أثبت نفسه أعظم الملوك الكارولنجيين كان "شارلمان"(٧٤٧-٨١٤م)، الذي تُوّج إمبراطورا على يد البابا ليو الثالث(م ٨١٦م) في روما في عام ٨٠٠م. ولم يستطع العرب أخذ القسطنطنية التي ظلت صامدة أمام حملات ٧١٨م، وبذلك تم الحفاظ على الشرق. وكان الأهم عنده أن التوسع الإسلامي لم يستطع امتصاص منطقة البحر الأبيض المتوسط كله، فقال: "أحاط الإسلام بالبحر الأبيض المتوسط عن شرقه و جنوبه و غربه، ولكنه لم يقدر أخذ سلطان الشمال، وأصبح البحر الروماني العتيق حدا بين الإسلام و المسيحية. وألحقت جميع أقاليم البحر الأبيض المتوسط المفتوحة على أيدي المسلمين إلى بغداد"[٣٦]. وهنا وجد بيرين فرصة لمهاجمة المسلمين وإلقاء اللوم عليهم لأنهم هتكوا وحدة البحر التي ظلت صامدة رغم الغزو الجرماني، فقال:"إن الوثاق الذي تركته الغزوات الجرمانية سالما، تم تفتيكه. وما قدّر لبيزنطة بعدها أن تكون مركزا للإمبراطورية الإغريقية" مع قواعدها الأمامية مثل نابلي(Naples) ومدينة البندقية(Venice)، وجائتا(Gaeta) و أمَلفي(Amalfi). خوّل الأسطول هذه القواعد لتبقى على اتصال معه، فاستطاع بذلك منع المنطقة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط من أن يتحول إلى بحيرة مسلمة. ولكن الجهة الغربية للبحر كانت ذاك، ولقد كانت في يوم من الأيام أكبر وسيلة للإتصال ، ولكنها أصبحت الآن حاجزا منيعا"[٣٧].

"إنها هي الحقيقة الحاسمة عن أوروبا الذي ظهر إلى الوجود منذ الحروب البونية القرطاجية. كانت تلك نهاية الأعراف التقليدية[الإغريقية منها و الرومانية].إنها كانت بداية العصور الوسطى، وحدث ذلك في اللحظة التي كانت أوروبا فيها على وشك الاصطباغ بصبغة بيزنطية". هكذا نبه بيرين[٣٨].

ويرى بيرين أن المسلمين بعد أن سدوا الطرق التجارية الرومانية عبر البحر الأبيض المتوسط قاموا بإعادة تشكيل المنطقة وتغيير إدارتها، فيقول:" فتح العرب طرقا تجارية جديدة لم تكن مرتبطة بالبحر الأبيض المتوسط أو البحر الأسود و لكن ارتباطها كان بالبحر البلطي، من خلال بحر....(Caspian Sea)، وعن طريق نهر وولغا. و التجار الجرمانيون الشماليون أو

اسكنديناويون الذين كانوا يواصلون استعمال سواحل البحر الأسود دُفعوا بالقوة إلى اتباع الطرق الجديدة لبيع الفرو وسلعهم التجارية الأخرى. "والملاحة بين الموانئ المسلمة في البحر...((Aegean Sea) والموانئ التي بقيت على مسيحيتها أصبحت غير ممكنة منذ نصف القرن السابع". هكذا يلاحظ بيرين[٣٩]. ثم يذكر فتح العرب لأسبانيا في عام ٧١١م والأوضاع الأمنية التي تبعت هذا الفتح على سواحل بروفانس(Provence)، ويرى أنها كانت سيئة للغاية وقد أعدمت نهائيا وجود أي طريق على أساس البحر في الجهة الغربية من البحر الأبيض المتوسط " ويستمرقائلا: " وهكذا يمكن الجزم بأن الملاحة مع الشرق توقفت إلى عام ٦٥٠م بالنسبة للمناطق الواقعة شرقي صقلية، في حين أنها في النصف الأخير من القرن السابع تعطلت طرق الجهة الغربية كلها من البحر الأبيض المتوسط، حتى إنه لما كانت أوائل القرن الثامن لم يبق لها أثر على الإطلاق. فالآن لم يكن هناك أي نوع من المرورغير الذي كان يجري على الساحل البيزنطي وحده. قال ابن خلدون مقولته المشهورة:"لم يعد يستطيع المسيحيون أن يعوموا وتد عود على سطح البحر"[٤٠]. لم يذكر المؤلف مرجعه من كتب ابن خلدون. ولقد راجعت تاريخ ابن خلدون فوجدت أن المؤلف لم يفهم النص العربي ونقل بلغته ما خطر بباله، ثم نسبه إلى ابن خلدون. وفيما يلي نص ماقاله ابن خلدون حول هذه الأوضاع:

" وكان المسلمون لعهدة الدّولة الإسلاميّة قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للأمم النّصرانيّة قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيّامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائرالجزائر المنقطعة عن السّواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلّيّة وقوصرّة ومالطة وأقريطش وقبرس وسائر ممالك الرّوم والإفرنج"[٤١]

ويبدو أن العبارة التي انخدع بها المؤلف فجعلها مقولة ابن خلدون المشهورة قائلا: "لم يعد يستطيع المسيحيون أن يعوموا وتد عود على سطح البحر" لا أصل له، ولكن الأمر اختلط على المؤلف فأخذ مقولة عمرو بن العاص رضي الله عنه والي مصر من قبل عمر بن الخطاب رضي الله في وصف البحر حين طلبه منه الخليفة فقال «أن صف لي البحر» فكتب إليه عمرو: «إنّ البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود» فأوعز حينئذ بمنع

المسلمين من ركوبه و لم يركبه أحد من العرب إلّا من افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرفجة بن هرثمة الأزديّ سيّد بجيلة لّما أغزاه عمّان فبلغه غزوة في البحر فأنكر عليه وعنّفه أنّه ركب البحر للغزو و لم يزل الشّأن ذلك حتّى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده"[٤٢]، فلما جاء مؤلف هذا الكتاب لصقه بوصف ابن خلدون لقوة المسلمين و منعتهم و سلطانهم مقابل النصارى.

كلمات غير لائقة في حق المسلمين:

استعمل بيرين لغة غير مناسبة في حق المسلمين مما يدل على ضغينته الخفية تجاههم، ويرى أن البحر الأبيض المتوسط أصبح بعدها على هوى العرب القرصان، وإنهم في القرن التاسع قاموا بمصادرة الجزر، وخربوا الموانئ، وشنوا هجمات مرحة ضارية في كل جهة. "فميناء المرسي العظيم الذي ظل من قبل مركزا تجاريا عظيما بين الشرق والغرب أصبح فارغا. وبذلك تبعثرت الوحدة التجارية القديمة التي ظلت قائمة بالبحر الأبيض المتوسط، وبقيت كذلك إلى أن بدأت الحروب الصليبية. صمدت هذه الطرق التجارية أمام الغزوات الجرمانية ولكنها انهارت أمام التقدم الإسلامي العنيف"[٤٣].

وتجمد سيل البهارات وورق البردي والزيت والخمور والسلع التجارية الأخرى الذي التي كانت تتدفق من بيزنطيا وآسيا. ويشهد التاريخ أن البهارات غابت من الأطعمة العادية في غضون نهايات القرن السابع و بدايات القرن الثامن. و لم تعد تظهر في الأغذية إلا بعد القرن الثاني عشر عندما فُتح البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى للتجارة"[٤٤]. و لم يعد الزيت يستورد من إفريقيا و التفتت الكنائس إلى الشمع لتنويرها، كما أن استعمال الحرير أصبح غير معروف في هذا العصر. ولقد قام شارلمان فقط بمعالجة ماكان يواجهه الملوك المرفنجيون قبله بشكل مباشر. أصبح وجود الذهب نادرا بمرور الزمن، والدليل على ذلك ازدياد نسبة استعمال الفضة في عصر الكارولنجيين. وغاب عن المنظر التجار الحرفيون الأغنياء الذين كانوا يفيدون المجتمع في غالب الأحيان. وبقيت تجارة العبيد فعالة من سلافونيا(Slavonia) عن طريق مدينة البندقية(Venice) وكانت تجري تحت الرقابة الأمنية من الدولة البيزنطية.

ولخص بيرين هذا الوضع الغامض كما يلي:

"قُسّم البحر الأبيض المتوسط المسيحي إلى حوضين. حوض في الشرق و آخر في الغرب، والذي كان محاطا بالبلاد الإسلامية. ثم بعد نهاية حرب التسلط في أواخر القرن التاسع شكل هذان الحوضان عالما خاصا بهما، والذي كان يتمتع بالاكتفاء الذاتي مع نزعته إلى بغداد في الوقت نفسه". هذا عن النقطة المركزية التي كانت قوافل آسيا تسلك طريقها، وانتهى هنا الطريق التجاري العظيم الذي كان يؤدي إلى البلطيك (Baltic) عن طريق فولغا (Volga). وكانت المنتجات تصدّر من بغداد إلى إفريقيا و أسبانيا. وعلى كل حال فإن الملاحة المسيحية استمرت بفعالية متمحورة في الشرق ، وظلت إيطاليا كأقصى نقطة جنوبية على اتصال مع الشرق. و أما في الغرب، فعلى عكس ذلك، كان خليج ليون (Lyons) وريفيرا(Riviera) الممتد إلى مدخل تيبر(Tiber) الذي تعرض للنهب والتخريب بالحرب و بأيدي القراصنة، وذلك لعدم قدرة المسيحيين على الوقوف أمامهم لما لم يكن لديهم أسطول، فلم يُحوّل إلى منطقة منعزلة فحسب بل و كانت فريسة سهلة للقرصنة. حوّلت الموانئ والمدن إلى صحارى. انقطع الرابط مع الشرق ولم يبق هنالك اتصال مع السواحل الإسلامية. لم يبق هناك مخرج سوى الموت. أثبت الإمبراطور الكارولنجي كونه نموذجا فريدا من نوعه في بيزنطيا. و

كانت قوته داخلية محضة لأنه لم يكن له وسائل اتصال خارجية. ولقد كانت المناطق المتصلة بالبحر الأبيض المتوسط، والتي كانت أنشط جزء للإمبراطورية في الماضي، والتي كانت عونا للجميع، أصبحت الآن أضعف أجزائها، مهجورة ومهددة طوال الزمن. وحدث لأول مرة في التاريخ آنذاك أن حُرّك محور الحضارة الغربية إلى الجنوب، وظل كذلك لقرون عديدة بين السَّينة و الراين(Seine and the Rhine). وأما الشعب الجرماني الذي كان قد لعب من قبل دورا سلبيا يتمثل في المخربين، آن لهم الآن أن يلعبوا دورا إيجابيا ليتمثل في مشاركتهم في إعادة بناء الحضارة الأوروبية. تبعثر التقليد القديم لأن الإسلام دمّر الوحدة العتيقة للبحر الأبيض المتوسط"[٤٥]. كانت الاعتداءات الإسلامية المدمرة هي بداية العصور الوسطى. " ولقد ظل اقتصاد البحر الأبيض المتوسط القديم ظل قائما قبل حلول القرن الثامن الميلادي. وأما بعد القرن الثامن فكان هناك انقطاع كامل لهذا الاقتصاد حيث تم إغلاق البحر وغابت التجارة إثر ذلك. نحن نتكلم الآن عن إمبراطورية كانت ثروتها الوحيدة أرضها، والتي

تقلصت حركة التجارة فيها إلى أقل ما يكون. لا يمكننا تخيل رقي هذه الإمبراطورية في تلك الأوضاع بل تعرضت للنكوص. والمناطق التي كانت يوما ما أكثر انشغالا، أصبحت الآن أضعفها حركة.ظلت المناطق الجنوبية يوما عامرة و حافلة، ولكن الآن فرض الشمال نفسه على الزمن"[٤٦]. غير أن حالة المناطق الواقعة في أقصى شمال الإمبراطورية الكارولنجية مختلفة عن ذالك. كانت تلك المناطق مركزا عظيما للملاحة التجارية، غير أنها كانت فريدة من نوعها بالنسبة لباقي الإمبراطورية. كانت البحار في الجهة الجنوبية مازالت حرة و لم تكن صناعة القماش الفلمنكية الجرمانية قد توارت. ثم إن الحضارة الفايكنغ (الإسكندنافية) أيضا ازدهرت في القرنين التاسع والعاشر. " ومن ثم كانت لدى الإمبراطور الكارولنجي نقطتين تجاريتين حساستين: إحداهما في إيطاليا الشمالية، والفضل في ذلك لإقتصاد مدينة البندقية (Venice) المتواصل إلى الدول الدنيا، والفضل أيضا للتجارة الفريسية (Frisian) والسكندنافية. و من هاتين المنطقتين انطلقت النهضة التجارية في القرن الحادي عشر. إلا أنها لم تقدر على النهوض حتى دخل هذا القرن". تم تدمير الدول الدنيا على أيدي النورمانيين في حين أن مدينة البندقية (Venice) لقيت مصيرها على أيدي العرب و الاضطراب الطارئ في إيطاليا[٤٧].

كانت نتيجة التردي الإقتصادي الذي أصاب الجهة الغربية من البحر الأبيض المتوسط جراء التقدم الإسلامي أن أصبحت هذه الأرض قاعدة أساسية للإقتصاد الأوروبي بدرجة لم تنلها أبدا من قبل. غابت اللغة اللاتينية من المنظر نتيجة لفوضى القرن الثامن. وجعلت الفوضى السياسية، وإعادة تنظيم الكنيسة، واختفاء المدن والإدارة التجارية، خاصة الإدارة المالية، وتلاشي المدارس اللاتينية مع روحها الاصيل. اقتلعت اللاتينية من جذورها، ومن ثم تم إعادة صياغتها طبقا لطبيعة المنطقة بشكل لهجات رومانية مختلفة..... توقف التكلم باللاتينية في حوالي ٨٠٠، غير ما كان يستعملها الاكليروس(رجال الدين المسيحي)"[٤٨].

"الحالة الاستثنائية من عموم التردي الاقتصادي و الحضاري في أوروبا في القرنين الثامن و التاسع، كان الإنجلو سكسونيون[٤٩] الذين وجدت الحضارة اللاتينية طريقها إليهم مع الديانة اللاتينية بشكل مفاجئ. وسرعان ما تحولوا، تحت تأثير روما وإرشاد منها، ثم إن الأنجلوسكسينيين وجهوا قبلتهم إلى المدينة المقدسة. إنهم كانوا يزورون المدينة المقدسة باستمرار، وكانوا يرجعون منها بالتذكارات المقدسة والمخطوطات. إنهم كانوا يستسلمون

أمام تأثيرها الموحي ويتعلمون لغتها، والتي لم ينظروا إليها لهجة دارجة، بل اعتبروها لغة مقدسة، تتمتع برتبة لا تضاهى. وفي الفترة المبكرة مثل القرن السابع كان هناك أناس من بين الإنجلوسكسينيين، من أمثال الزاهب البنيديكتي بيدي المبجل(Venerable Bede)[٦٧٢-٧٣٥م] و الشاعر الدهيلم(Aldhelm) [٦٣٩- ٧٠٩م] الذين كانت قوة التعلم لديهم محيرة للعقول إذا قورنت بالمعايير الاوروبية الغربية آنذاك"[٥٠]. والحقيقة أن الأنجلوسكسينيون هم الذين يرجع لهم فضل تبليغ المسيحية في ألمانيا.

نتائج فرضية المؤلف :

استنتج بيرين من تحليله مايلي:

أولا: "إن الغزوات الجرمانية لم تخرّب وحدة البحر الأبيض المتوسط التي كان يتمتع بها من الزمن القديم، ولاهي مست الملامح الأساسية للحضارة الرومانية بسوء، إذ أنها ظلت قائمة في القرن الخامس، يعني في الوقت الذي لم يكن قد بقي في الغرب إمبراطور. وعلى الرغم من الفوضى والدمار، لم تتغير المبادئ الأساسية، لا في النظام الاقتصادي ولا الاجتماعي، ولا حتى في المجال اللغوي أوالأعراف القائمة. الحضارة التي عاشت كانت هي البحر أبيض متوسطية في المناطق الواقعة على مقربة البحر فحسب، بل وبدأت لأهلها ابتكارات جديدة مع مرورالزمن، ومثال ذلك ظهور النظام الرهباني وتحول الأنجلو سكسينيين. "ففي عام ٦٠٠م لم تكن ملامح العالَم مختلفة في النوع من التي كانت له في ٤٠٠" [٥١].

ثانيا: إن التقدم السريع والمفاجئ للإسلام كان هو السبب في انقطاع العرف القديم وعتيقية المنطقة. ظهرت نتيجة هذا التقدم في الانفصال النهائي بين الشرق والغرب، ونهاية وحدة البحر الأبيض المتوسط. والدول مثل إفريقيا وأسبانيا التي كانت جزءا من الوحدة الغربية انتزعت إلى محور بغداد. وفرضت في هذه الدول ديانة أخرى، فما لبثت أن ظهرت معها حضارة مختلفة. وبما أن الجانب الغربي من البحر الأبيض المتوسط كان قد أصبح بحيرة مسلمة، فلم يعد بعدها طريقا للتجارة و سبيلا للعقيدة التي كان يتبناها حتى الآن." وبالإضافة إلى ذلك تم إغلاق الغرب تماما ، وأجبر على العيش معتمدا على وسائله. ولأول مرة في التاريخ انتقل

محور الحياة إلى الجانب الشمالي مما كان من قبل في جانب البحر الأبيض المتوسط. فبتدهور هذه البلاد سقطت المَلَكية المرفنجية، وتولدت من هذا التغير نظام حكومي جديد، النظام الكارولنجي، الذي كان منشؤه الأصلي في الجنوب الجرماني".

"وألحق البابا نفسه بهذا النظام الجديد، قاطعا صلته من الإمبراطور الحاكم في قسطنطينية، والذي ظل منهمكا في جهوده ضد المسلمين، ولكن هذه المساعي لم تضمن له الحماية. وهكذا ألحقت الكنيسة نفسها مع النظام الجديد. وهكذا في روما، وفي الإمبراطورية التي أسسها لم يظهر له منافس. وكانت قوتها أعظم قوة مما يمكن أن تكون لدولة ما، حيث كانت هذه الإمبراطورية قادرة على إدارة أمورها، واستطاعت أن تذوب في الإقطاعية، التي كانت تكملة لازمة للانحسار التجاري. وأصبحت جميع نتائج هذا التغير شديدة الوضوح بعد شارلمان. أوروبا التي كانت عائشة تحت سيطرة الكنيسة والنظام الإقطاعي، ظهر بلامح جديدة في مناطق مختلفة يختلف بعضها عن البعض بشكل يسير. إنها كانت بدايات العصور الوسطى، لكي يحفظ مصطلح التقليد. وبه تمت حماية الفترة الانتقالية. ويمكننا القول بأن هذا الصبغ ظل سائدا لمدة قرن من عام ٦٥٠ إلى ٧٥٠م. وفي عصر الفوضى غاب تقليد العتيقية، وظهرت عناصر جديدة إلى السطح.ثم يقول: " تم هذا التطور في حوالي عام ٨٠٠م عند تشكيل الإمبراطورية الجديدة، وهي التي جبرت الشق بين الشرق والغرب إلى درجة أنه أعطى للغرب إمبراطورية جديدة- وهو شاهد على أنه قطع علاقته مع الإمبراطورية القديمة، التي كانت قائمة في قسطنطنية"[٥٢].

تأييد التحليل من قبل الباحثين:

لقد تكلم الباحثون حول فرضية بيرين هذه فكان منهم من أثنى عليه وعدّه من الأفذاذ الذين أتوا بأفكار جديدة تجعل منهم رواد الفكر الذين يغيرون مجرى التاريخ، ومنهم من انتقده لمهاجمته الإسلام والمسلمين على أساس ظنّ اخترعه من عنده من دون أن يكون له سلطان على ما يزعمه، وهنا سوف نحاول عرض بعض الآراء مع تعليقنا على نصوص الكتاب وعلى ما مست الحاجة إليه من تعليقات الباحثين.نبدأ بها بالكلمة الوصفية التي كتبها ناشر الطبعة الإنجليزية للكتاب، ولنحسبها موجزا لمضمونه، قال الناشر:

" هذا العمل العظيم الذي نشر بعد وفاة مؤلفه العالم البلجيكي الكبير، قد قدم تفسيرا جديدا وحاسما لـ" تحول وضع أوروبا" من زمن قسطنطين إلى عصر شارلمان. ولقد قلبت أفكاره الثورية بمعظم المفاهيم المتركزة في الأذهان حول القرون الوسطى رأسا على أعقابها، ويمكن تلخيص وجهة نظره فيما يلي: (١). إن الحملات الجرمانية لم تحطم وحدة البحر المتوسط القائمة منذ عهد العالم القديم، ولا هي أحدثت أي تغيير في الملامح الأساسية للثقافة الرومانية ..... ففي عام ٦٠٠ م لم يكن مظهر العالم في طبيعته مختلفا كثيرا عن الذي يستلهم مما كان في ٤٠٠م.(٢). وكان سبب خرق تقليد الأثرية هو الإسلام..... و أما الذي أكمل هذا التطور في عام ٨٠٠م كان شارلمان، إذ أعطى للغرب امبراطورية رومانية جديدة ـــ الدليل الواضح على أن الغرب القديم كان قد انهار من عهد الامبراطورية القسطنطينية"[٥٣].

ويعد هذا التعبير ملخصا لمضمون الكتاب كله، فهو مقسم إلى جزئين أحدهما يركز على إثبات النقطة الأولى، وهي استمرارية حضارة حوض البحر المتوسط رغم كل الحوادث التي طرأت عليها من جراء الغزو الجرماني، وكذلك الوضع الإقتصادي هنالك لم يتغير كثيرا مما كان عليه. في حين أنه حاول في الجزء الثاني إثبات فكرته بأن الفتوحات الإسلامية التي يفضل المؤلف تسميتها بـ" التقدم المحمدي" فكك هذه التشكيلة القديمة و فتح المجال أمام شارلمان لإعادة صياغة المناطق ببسط سلطته عليها من بقايا الإمراطورية الرومانية.

وورد في Biot Report#٥٣٢، ٠١ August، ٢٠٠٨ حول هذا الكتاب:

"أخذ بيرين على عاتقه رد النظرية الشائعة التي من أجلها شاع الاعتقاد في عامة الناس من أن البرابرة الألمان هم الذين تسببوا في انهيار الامبراطورية الرومانية[٥٤]، وكان أول من اختلق هذه الفكرة الخاطئة في أواخر القرن الثامن عشر هو المؤرخ الإنجليزي ادوارد غيبون (١٧٣٧-١٧٩٤م) في كتابه "تاريخ انهيارالإمبراطورية الرومانية"[٥٥] يفرض بيرين أن تقدم الإسلام في القرن السابع الميلادي خارج الجزيرة العربية هو الذي قضى على الإمبراطورية الرومانية. و التقدم الإسلامي هو الذي حول البحر الأبيض المتوسط الغربي إلى بحيرة مسلمة واسعة، وكانت النتيجة أن سُد طريق التجارة وانقطع الاتصال الفكري بين قسطنطينية المتركزة في الإمبراطورية الرومانية و بين الإمبراطورية الرومانية في الغرب. والإسلام، حسب رأي بيرين خنق أوروبا الغربية بعد أن حول البحر الأبيض المتوسط الذي كان غربيا إلى عرين كبير للقراصنة العرب النهابين السلابين. كثير من الأوروبيين الغربيين هاجروا من مدنهم التجارية

المزدهرة الواقعة على شواطئ البحر إلى قرى صحراوية نائية واشتغلوا في الزراعة حرصا منهم على بقاء وجودهم. وانتقل محور الحياة لأول مرة في التاريخ من البحر الأبيض المتوسط إلى جهة الشمال.[هكذا قال بيرين][٥٦].

وهناك من نقد هذه الفرضية وكشف عن حقيقة الحقائق التي عرضها بيرين تأييدا لفرضيته، وتدور دراسة بيرين هذه حول نظريته في" انهيار العالم القديم وبداية العصور الوسطى "، وسوف نحلل نتائج بحثه محللين أدلته في ضوء نصوص كتابه مع الاستعانة بتعليقات المحللين المسلمين و غير المسلمين وفيما يلي أهم النقاط التي تعنينا في نظرية "هنري بيرين" :

١. إن عنوان الكتاب"محمد وشارلمان" لا يتناسب مع النسق التاريخي إذ أن شارلمان لم يكن إمبراطورا في زمن نبي الإسلام "محمدصلى الله عليه وسلم"، بل و لم يكن قد ولد آنذاك، فمقارنته بين شارلمان وبين محمد صلى الله عليه وسلم لا يتطابق مع المبادئ العلمية للدراسة والتحقيق.وهو بنفسه قد ذكر هذه الحقيقة إذ قال: " مات محمد في ٦٣٢م، وبدأت الحملات الإسلامية بعده بسنوات عديدة" [٥٧].و بذلك لا يبدو كون الدراسة علمية قائمة على البحث عن الحقائق، بل وتتطرق من وراء سطوره الضغينة التي بسببها يحاول توجيه كل سهام السخط إلى الذات المباركة التي دعت إلى الإسلام. ولقد كانت بين شارلمان(٧٤٢-٨١٤م) وبين هارون الرشيد(١٤٩ - ١٩١هـ، ٧٦٦ - ٨٠٦م)[٥٨] معاصرة، وتبادل إهداءات، ولو قارن المؤلف بين عصريهما وانجازاتهما التجارية والعلمية لجاء بشيء علمي أفاد به الناس.

٢. كيف طرأ تحول على فكر بيرين، فجاء بفرضية جديدة لم يسبق إليها أحد، فألقى لوم تحطيم وحدة حوض البحر الأبيض المتوسط على الإسلام، بل وبزعمه على نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم؟ فللإجابة على هذا السؤال نرى أن بيرين درس في عدة جامعات حتى وصل إلى درجة الدكتوراه، وكانت دراسته في تاريخ العصور الوسطى، فلم يظهر أي تغير في وجهة نظره إلا بعد أن سجن في ألمانيا، فيا ترى ما ذا يكون وراء هذا الالتفات السريع الذي لم ير نورا قبل أسره في مدة طويلة قضاها المؤلف حرا طليقا يدرس ويدرّس، ويقرأ ويؤلف. لا نرى أحد المحللين يذكر عن هذه النقطة شيئا، ويبدو لي، والله أعلم، أن المؤلف عندما سجن في ألمانيا(١٨ مارس ١٩١٦م)، وكان قد مر من استجوابات شديدة أثناء اعتقاله، لم يجد لنفسه مخرجا إلا

أن ينشئ صلة قرابة بين قومه وبين الذين اعتقلوه فجاته فكرة مهاجمة الإسلام ونبيه وبيان صلة دينية قديمة بين بني قومه وبين محاربيهم، وأن يلقي اللوم كله على الإسلام والمسلمين، تأسيا بقولهم"أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على غيري"، ثم خطط لجعل هذه الفكرة سياسة يتبعها الغرب ضد الإسلام إلى يومنا هذا.

٣. أما مايتعلق بالمستوى العلمي لكتاب بيرين فالظاهر من مراجعه ومصادره أنه مجرد مجموعة لأفكار المستشرقين الذين خدموا سياسة أهلهم، لأنه لم يرجع إلى المصادر الأصلية في الكشف عن الحقائق إلا نادرا.

٤. يرى بيرين أن أهم ما يميز الإمبراطورية الرومانية هو ارتباطها بالبحر المتوسط ارتباطاً وثيقاً لأن حضارة العالم الروماني تمركزت على هذا البحر الذي كان أداة لنقل الأفكار والديانات والسلع وأن عظمة الإمبراطورية الرومانية واستمرارها مرتبط بوحدة هذا البحر و بقائه بحيرة رومانية . ولكن هذه دعوى منه بلا دليل لأن الدراسات الحديثة أثبتت أن:

- البحر المتوسط طريق للتجارة وليس ضماناً للنجاح التجاري، كما أثبتت التجربة الإسلامية بتغيير الطرق التجارية حسب رأي بيرين .

٥. يرى بيرين أن "الجرمان" لم يحطموا الإمبراطورية الرومانية و حضارتها لأنه لم تكن هناك دوافع دينية أو ضغائن دينية بين الجرمان و الرومان، وأن الفتوحات الإسلامية هي التي قضت على الإمبراطورية الرومانية و هي التي أدت إلى:

أ. تحطيم وحدة البحر المتوسط وتغير ميزان القوى فيه.

ب. الفتوحات العربية الإسلامية قضت على الحركة التجارية الأوربية في البحر المتوسط ، وعملت على قطع العلاقات التجارية بين الشرق و الغرب.

ت. تحول البحر المتوسط من بحيرة رومانية إلى بحيرة عربية إسلامية ، وبذلك تحول الاقتصاد الأوربي إلى اقتصاد مغلق يعتمد على الاكتفاء الذاتي ، لذلك انهار العالم القديم و بدأت العصور الوسطى.

و لقد أثبتت الحقائق أن:

- ○ الإمبراطورية الرومانية تفككت وحدتها نتيجة الغزوات الجرمانية التي اجتاحت الإمبراطورية منذ القرن الرابع الميلادي ، وانه عندما فتح العرب المسلمون " إسبانية" كانت بيد الغوط الغربيين و ليس بيد الرومان .
- ○ الفندال الجرمان الذين استولوا على شمال أفريقية (عام ٤٢٩ م) قد قاموا بأعمال قرصنة في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، لذلك هم الذين تسببوا في تحطيم وحدة عالم البحر المتوسط[٥٩].

٦. وادعى بيرين أن التجار المسلمين لم يمارسوا نشاطهم خارج حدود العالم الإسلامي. والحقيقة أن:

- ❖ المتاجرة مع غير المسلمين لم يكن محرما على العرب المسلمين لا في القرآن ولا في السنة، فكيف كان لهم أن يمتنعوا من ممارستها.
- ❖ رغم أن الفتوحات العربية الإسلامية فتحت آفاقا رزقية أخرى للمسلمين مثل الزراعة والصناعة إلا أن العمل التجاري هو الذي ظل المهنة الرئيسة لعدد كبير من العرب المسلمين .
- ❖ ثبت تاريخيا أن التجار العرب المسلمين أقاموا مستوطنات تجارية خارج حدود العالم العربي الإسلامي.
- ❖ سكان إيطالية و غاليا كانوا يعتمدون على القمح المستورد من مصر و آسيا و أفريقية الشمالية ، في حين أن مدينة " روما" كانت تعيش على موارد البلاد المجاورة لها.
- ❖ أحرز المسلمون تقدما عظيما في الصناعات التي كانت ترسل إلى بلاد عديدة. نذكر على سبيل المثال الساعة التي أهداها هارون الرشيد عام ١٩٢هـ، ٨٠٧م إلى شارلمان، وكانت أعجوبة، إذ كانت تعمل بطريقة آلية محكمة، وكانت كرة صغيرة تسقط بعد مضي كل اثنتي عشرة ساعة، مما كان يحدث بداخلها إيقاعا جميلا ، وكان بها اثنا عشر حصانًا تقفز من اثنتي عشرة بوابة كلما دارت الساعة دورة كاملة[٦٠].

٧. وذكر المؤلف أيضا أن الذهب و زيت الزيتون و البردي و النبيذ و المنسوجات الشرقية و التوابل كانت تأتي من الشرق إلى الغرب الأوربي وظلت تستهلك ثم اختفت في القرن الثامن الميلادي حيث:

- حلت النقود الفضية محل النقود الذهبية التي كانت تصنع بكثرة في عهد الفرنجة الميروفنجيين .
- انقطع استيراد ورق البردي من مصر .
- توقف استيراد زيت الزيتون من تونس .
- توقف استخدام الأقمشة و المنسوجات الشرقية في أوربا .
- توقف استخدام النبيذ الفلسطيني الذي كان يستعمل في الطقوس الدينية
- انقطع استعمال التوابل في الغرب الأوربي .

الحقيقة غير ما زعمه بيرين، فمن الثابت في المراجع التاريخية أن:

☒ اتجاه الذهب من الغرب إلى الشرق كان منذ القرن الثالث الميلادي. ولقد برهن " لوبيز" أنه منذ أواخر القرن السادس الميلادي ازداد إنتاج العملة الفضية ونقص الذهب في أواخر عهد الميروفنجيين. وكان من أسباب نقص الذهب أن الغرب كان يستورده أكثر مما يصدره. ومن هذه الأسباب أن رجال الدين و الإقطاعيين في الغرب الأوربي رغبوا بسحب الذهب و خزنه، فنتيجة لذلك جاء نقصه.

☒ وأما مشكلة البردي الذي يرى "بيرين" توقف تصديره إلى الغرب الأوربي نتيجة الفتح العربي الإسلامي لمصر غيرأن الصحيح ما يلي:

أ- يقول "دانيت" أن تصدير البردي إلى الغرب بقي بعد الفتح العربي الإسلامي لمصر .

ب- أن الميروفنجيين استمروا في استخدام البردي القادم من مصر بعد الفتح العربي الإسلامي لأكثر من نصف قرن.

ت- منذ القرن السادس الميلادي أخذت المؤسسات الأوربية تكتب وثائقها و أخبارها على الصحائف الجلدية وذلك لأن أوراق البردي لم تكن قادرة على مقاومة الأجواء الرطبة .

ث- أن صناعة الورق انتقلت من الصين إلى العرب الذين نقلوها بدورهم إلى الغرب الذين لم يستخدمونه في البداية و أخذوا يستخدمون في البداية جلود الحيوانات .

☒ وأما ما يتعلق بمشكلة النبيذ فيقول:هنري بيرين" أن الكنيسة الغربية توقفت عن استخدام النبيذ الفلسطيني في طقوس" الغربان"، وحقيقة الأمر أن المسلمين لم يشجعوا على صناعة الخمور لأنه محرم في الديانة الإسلامية، ولكن على الرغم من ذلك ظلت

صناعة الخمور بشكل محدود في المشرق العربي الإسلامي، لأن الكنائس المسيحية في فلسطين و سورية ظلت تستخدم النبيذ في الطقوس الدينية.

☒ أما مشكلة الأقمشة و التوابل، فلقد أثبت العالم البلجيكي " ساب" حديثاً أنه لا يزال هناك تيار من واردات الأقمشة الشرقية خلال القرنيين التاسع والعاشر، كما تدفقت التوابل إلى الغرب الأوربي بعد حوالي قرنيين أو أكثر من الفتح العربي الإسلامي.

وهكذا تهاوت نظرية " هنري بيرين" وتحطمت أساسياتها أمام البحث العلمي الموضوعي [٦١].

تعليقات نقدية:

يرى مالك بن نبي أن فرضية بيرين تنطبق على جميع الحضارات، فالحضارة الغربية في رأيه بنتها الفكرة المسيحية التي دفعت البداوة الجرمانية بعد ستة قرون من الإسلام إلى تكوين هذا الكيان الذي أسسه شارلمان، ذلك أن المسيحية على رأيه حين ظهرت في الشرق لم تأت إلى أرض بكر بل جاءت إلى وسط خليط تعمل فيه ثقافات متنوعة، وليس كذلك كان الأمر في أوروبة حين بعث فيها شارلمان الروح المسيحية. وهذا التحليل يتفق فيه بن نبي مع المفكر الألماني كيسرلنج والمؤرخ هنري بيرين في كتاب له قارن فيه بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية عنوانه "محمد وشارلمان". وحتى الحضارة التي قادتهاالأحزاب الشيوعية الملحدة لا يستثنيها بن نبي من هذه القاعدة قائلاً إنها من جهة نتاج لازمة في المسيحية وإنها من جهة أخرى لم تقم حقيقة في مستواها الإنساني على الأفكار الماركسية الملحدة بل قامت على تفاني أفراد توجههم فكرة عن التضحية في سبيل المصلحة العامة: "تعتبر الشيوعية النظرية قبل كل شيء "فكرة" ماركس، ولكن هناكشيوعية واقعية، هي في جوهرها نشاط المؤمنين المدفوعين بنفس القوى الداخلية لتدافع عن غيرهم من المؤمنين في مختلف العصور، أولئك الذين شهدوا مولد الحضارات .فالظاهرة متماثلة في جوهرها النفسي ومحددة هنا وهناك بنفس سلوك الفرد حيال مشاكل المجتمع الناتج"[٦٢]

ولقد نقل رضوان السيد عن "جاك غودي" قوله: أنّ هنري بيرين (صاحب محمد وشارلمان) أخطأ في نظريته القائلة إنه لولا محمدٌ لما ظهر شارلمان، بمعنى أنّ الإسلام هو الذي عزل الشواطئ الشرقية للمتوسط عن الغربية، فمكّنَ ذلك شارلمان من إقامة دولته المكتفية بذاتها وغير المرتبطة بالمسلمين أو البيزنطيين. يشير "غودي" إلى بحوثٍ أُخرى تفيدُ أنّ الصِلات

التجارية لم تتوقف، وأنه كانت لشارلمان علاقاتٌ بالمسلمين في أسبانيا وفي بغداد. وبعد قرنين على مملكته شعر الأوروبيون بالحاجة لغزو الشرق الإسلامي للقضاء على منافسته، وليس من أجل "استعادة" قبر المسيح فقط. فقد كانت تسيطر على التجارتين البرية والبحرية عبر شرق العالَم، ليس بالقوة العسكرية، بل بالتفوق الإنتاجي والحضاري[٦٣].

ويناقش د.محمد أركون وجهة نظر "هنري بيرين" في كتابه "محمد وشارلمان" أن الاسلام بتوسعه على حساب الامبراطورية الرومانية في حوض البحر المتوسط قد سبب قطيعة في تاريخ البحر المتوسط لقضائه على السلام الروماني عبر الحروب المتواصلة التي لم تهدأ ، نمط الحياة الجديد كان مغايرا لما هو مألوف حيث أن المسجد قد أصبح محور الحياة الدينية و تدريس الشريعة بالاضافة لعلوم القرآن و اللغة العربية و الفلسفة و علم الكلام و قد أصبحت المجالات الوحيدة للتعليم و الثقافة أما الجغرافيا مثلا فقد كانت نخبوية و الكتابات المتعلقة بها جاءت متأخرة، لقد جرى إهمال تاريخ حضارات التي سبقت الاسلام و التنقيب عن الاثار لم يبدأ إلا في القرن التاسع شعر و عبر الجامعات الاوروبية وفك رموز اللغات و التعرف إلى محتوياتها جرى عن طريق المتخصصين الغربيين دون أن يكون هناك اهتمام عربي يذكر ،في بلاد الرافدين لم تكن الكتابة معروفة على الورق بل عبر الالواح الطينية و رغم وصول عدد منها سالما حتى اليوم فإن الجزء الاكبر قد ضاع بسبب الحروب و الزمن و عوامل الطبيعة كالزلازل والفيضانات الدورية. أي أن صلة الشرق الاوسط مع الماضي قد أصبحت مقطوعة[٦٤].

ويبحث هاشم صالح الجذور التاريخية للصراع في كتابات بيرين فيقول:

"لتوضيح جذور الصراع يمكن أن نستشهد بعبارة للمؤرخ البلجيكي المعروف هنري بيرين. وهي واردة في كتابه : محمد وشارلمان. وفيها يقول بما معناه: "مع الإسلام ظهر عالم جديد على ضفاف المتوسط. وحصل عن ذلك تصدع أو كسر لا يزال مستمرا حتى يومنا هذا"[٦٥].ما الذي نستنتجه من هذه الكلمات؟ نستنتج أن المسيحية كانت مسيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، حتى ظهور الإسلام. لقد كانت تهيمن على كلتا الضفتين لا على ضفة واحدة كما هو عليه الحال الآن .ولكن بعد ظهوره لم تعد تهيمن إلا على ضفة واحدة. فقد اكتسح الإسلام كل الضفة الجنوبية والشرقية بل ووصل إلى الضفة الغربية حيث احتل اسبانيا وأسس الحضارة الأندلسية لمدة ثمانية قرون[٦٦].

ويعبر كاترين عن فرضية بيرين بطريقة أخرى فيقول: " إن أورباحسب هنري بيرين في كتابه «محمد وشارلمان» وعت نفسها دائما ضدا على العالم الإسلامي وهو ما يسميه كاترين «مرآة بيرين»"[٦٧].

ويكشف حسن الهنداوي الستار عن فرضية هنري بيرين ويحلل تفسيراته التي اشتهر عنها بأنها تفسيرات جريئة فيقول:"صفوة القول إذن، أن ظهور الإسلام هو العامل الحاسم في تقهقر المسيحية وتدمير عالمها المزدهر السابق. بل وهو العامل الجوهري الذي زجّها في متاهات القرون الوسطى المعتمة. وهذا على أية حال ما يراه عدد من كبار المفكرين الغربين انفسهم كهنري بيرين الذي لخص رأيه في هذا الصدد بجملة: «لولا محمد لما ولد شارلمان.«بكلمة أخرى، إن الإسلام بقضائه على الإمبراطورية الرومانية المسيحية، المتوسطية كليا قبلئذ، أحدث جملة من التغيرات العميقة في خارطة ما يعرف بـ «العالم القديم»، أهمها اثنان رئيسيان. يتمثل الأول في إحداث قطيعة حاسمة وشاملة بين الشرق والغرب، أنهت وجود ذلك العالم القديم المتوحد حول الأبيض المتوسط، بانشطاره فعليا إلى عالمين اثنين، مسيحي وإسلامي، يفصل بينهما الأبيض المتوسط نفسه فصلا حادا، عالمان متضادان في كل شيء ومتصارعان في كل المجالات.

ففي الواقع، ومهما صدقت المبالغة بحجم الانتصارات التي حققها شارلمان ضد المسلمين، إن تلك الانتصارات ظلت مقتصرة على البر الأوروبي وحده، وعلى جزء منه فقط إذا توخينا الدقة، نظرا لأنها لم تمتد أدنى امتداد إلى المناطق الأخرى، من العالم المسيحي، التي فتحها العرب المسلمون. إنما على العكس شهدت هذه المناطق، لا سيما جنوب وشرق المتوسط، نجاح المسلمين في تثبيت وتجذير وجودهم فيها لا العسكري والسياسي فحسب بل الديني واللغوي والثقافي أيضا، مما أدى إلى انبثاق عالم حضاري جديد لا علاقة استمرارية له مع الحضارة المتوسطية السابقة على الرغم من انتهاله أو استلهامه كثيرا من معطياتها في شتى الميادين وبحرية كاملة. أما التغيير الرئيسي الآخر، فيتجسد في توفير الضرورة الموضوعية التي دفعت الكنيسة الرومانية إلى اللجوء ثم التطابق التام مع القبائل الجرمانية، الوثنية سابقا، متماهية معها في عالم مسيحي جديد هو الآخر، عالم غربي محض، دخل من جانبه في مرحلة تطور حضاري مغاير تماما لذلك التطور الذي كانت الحضارة المسيحية السابقة قد عرفته لحد ذلك

الوقت، يبدأ مع مطلع القرون الوسطى وينتهي بنهايتها، أي بانبثاق أوروبا الحديثة العلمانية والمتوسطية جوهريا"[٦٨].

ويفسر أنور الجندي فرضية بيرين في نقطة انقطاع الحضارة البحر أوسطية بقدوم المسلمين أن ذلك كان لقوة الإسلام الفكرية والخلقية، وهذه القوة كانت معدومة لدى القبائل الجرمانية التي استولت على تلك المناطق قبل المسلمين، فقال:" أما الانقطاع التاريخي بين ما قبل الإسلام وبين عصر الإسلام فإن أمره واضح ويعترف به حتى من هو أشد المؤرخين الأوربيين تعصباً فإن (هنري بيرين) مؤلف كتاب (محمد – صلى الله عليه وسلم - وشارلمان) يقرر: "أن الإسلام هو القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأروبي، وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة، ثمرتان من ثمار الإسلام، وإن ما يقال من أن سقوط الامبراطورية الرومانية هو العامل المؤدي إلى هذا التحول في التاريخ هو قول خاطئ فإن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن، وضيق الحياة، إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبيد إلى السادة، فما كان يخطر لها – بل ما كانت ترغب أبداً – في أن تناوئ روما وتقضي عليها."أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان في جميع أساليب الحياة، ولاسيما من الناحية الدينية التي كانت مبعث قوتهم ومصدر تربيتهم، فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم وقد ظلت الدولة الرومانية قائمة، وظلت حضارتها باقية، وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسي من روما إلى بيزنطة "القسطنطينية "وأصاب حياتها العقلية والمادية شيء من الركود والفساد.ولكن لم تكد تهب (رياح الإسلام) وتسير ركائبه إلى أراضي اليونان، حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار، وقامت دول جديدة وظهرت حضارة جديدة، حاصرت أوربا من الشرق والجنوب والغرب "بعد فتح الأندلس". فاضطرت ملوكها إلى أن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالي من أوربا حيث قامت المعارك التي كتبت تاريخ أوربا في العصر الوسيط. وإبان العصر الحديث.أما الجزء الجنوبي من أوربا فلم تقع فيه – في تلك العهود – معارك إلا معركة (بواتيه) التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس بالخيانة والغدر لا بالقوة والبأس"[٦٩].هذا ما وصلنا إليه والله من وراء القصد.

الهوامش:

١. Pirenne، "L'origine des constitutions urbaines au Moyen Age"، in *Revue Historique*، ١٨٩٥. عن Wikipedia، the free encyclopedia

٢. Wikipedia، the free encyclopedia نقلا عن *Mohammed and Charlemagne* ولقد كانت الفرضية عرضت لأول مرة في مقال نشر في Revue belge de Philologie et d'Histoire، ١ (١٩٢٢) pp. ٧٧-٨٦.

٣ اعتمدنا في هذه الدراسة الطبعة الإنجليزية الثالثة(١٩٥٨م، لندن)، وهي تحتوي على ٢٩٣ صفحة.

٤ (هنري بيرين: محمد وشارلمان، لندن،جورج ألين و أنوين، المحدودة،ص١٧) Henri Pirenne; Mohammad and Charlemagne، London، George Allen & Unwin LTD، p.١٧

٥ هنري بيرين، المرجع السابق،ص ٢٠

٦ المرجع السابق،ص ٢٠

٧ المرجع السابق،ص٢١

٨ المرجع السابق،ص٦٢

٩ المرجع السابق،ص١٧: Mineola، New York: Dover Publications، (٢٠٠١)

١٠ المرجع السابق،ص١٩

١١ هنري بيرين، محمد و شارلمان،المرجع السابق نفسه،ص١٩

١٢ المرجع السابق نفسه،ص٢٠

١٣ المرجع السابق نفسه،ص٢٣

١٤ المرجع السابق نفسه،ص٣٦،٣٧

١٥ المرجع السابق نفسه،ص٣٧

١٦ هونوريوس، فلافيوس (٣٨٤- ٤٢٣) إمبراطور روماني (٣٩٥-٤٢٣) رقي عرش الإمبراطورية الغربية بعد تقسيم الإمبراطورية إلى شرقية وغربية. المورد (إنجليزي، عربي) منير البعلبكي.

١٧ هنري بيرين، محمد وشارلمان، المرجع السابق نفسه، ص٤٨

١٨ المرجع السابق نفسه، ص٦٢

١٩ المرجع السابق نفسه، ص٧٣

٢٠ راجع http://www.rojava.net/JiyanHasr١٣.٠٧.٢٠٠٨.htm

٢١ هنري بيرين، محمد وشارلمان،ص٧٤

٢٢ المرجع السابق نفسه، ص٨٩

٢٣ المرجع السابق نفسه، ص٩١

٢٤ المرجع السابق نفسه، ص٩٧

٢٥ المرجع السابق نفسه، ص١٠٧

٢٦ المرجع السابق نفسه، ص١٤٧

٢٧ المرجع السابق نفسه، ص١٤٨

٢٨ المرجع السابق نفسه، ص١٤٨

٢٩ المرجع السابق نفسه، ص١٤٩

٣٠ المرجع السابق نفسه، ص١٤٩

٣١ المرجع السابق نفسه، ص١٤٩

٣٢ المرجع السابق نفسه، ص١٤٩

٣٣ المرجع السابق نفسه، ص١٥٠

٣٤ المرجع السابق نفسه، ص١٥٤

٣٥ المرجع السابق نفسه، ص١٥٥

٣٦ المرجع السابق نفسه، ص١٦٣

٣٧ المرجع السابق نفسه، ص١٦٤

٣٨ المرجع السابق نفسه، ص١٦٤

٣٩ المرجع السابق نفسه، ص١٦٦

٤٠ المرجع السابق نفسه، ص١٦٦

٤١ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن ابن خلدون ، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (م ٨٠٨هـ)،تحقيق: خليل شحادة،دار الفكر، بيروت،الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م١: ٣١٥

٤٢ تاريخ ابن خلدون ١: ٣١٥

٤٣ المرجع السابق نفسه، ص١٦٦

٤٤ المرجع السابق نفسه، ص١٧٢

٤٥ المرجع السابق نفسه، ص١٨٤

٤٦ المرجع السابق نفسه، ص٢٣٦

٤٧ المرجع السابق نفسه، ص٢٤٠

٤٨ المرجع السابق نفسه، ص٢٧٦

٤٩ الأنجلوسكسونيون: سكان انجلترا الجرمان قبل الفتح النورماني عام ١٠٦٦م.والنورمان حكموا انجلترة من ١٠٦٦ إلى ١١٥٤م، وتسمى فترة حكمهم الفترة الأنجلو نورمانية. المورد القريب

٥٠ هنري بيرين، محمد وشارلمان،المرجع السابق نفسه،ص٢٧٦

٥١ المرجع السابق نفسه، ص٢٨٤-٨٥

٥٢ المرجع السابق نفسه، ص٢٨٤-٨٥

٥٣ المرجع السابق نفسه، الجهة الخلفية لصفحة العنوان

٥٤ هنري بيرين: محمد وشارلمان،مينيولا،نيويورك، دوور للنشر،طبع لأول مرة في ٢٠٠١م، ثم طبعت منه نسخة جورج ألين و أونوين المحدودة، لندن، في عام ١٩٥٤

٥٥ (أدوارد جيبون: انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، المكتبة العصرية للمواد التقليدية، نيويورك،٢٠٠٣) Edward Gibbon: *The Decline and Fall of the Roman Empire* (Modern Library Classics)

٥٦ ٠١ Biot Report #٥٣٢: August،٢٠٠٨، Printer Friendly بعنوان: محمد وشارلمان لـ"هنري بيرين": كيف استطاع العرب المسلمون وليس البرابرة الألمانيون، القضاء على الإمبراطورية الرومانية. http://www.semp.us/publications/biot_reader.php?BiotID=٥٣٢

٥٧ المرجع السابق نفسه،ص١٤٩

٥٨ الموسوعة العربية العالمية

٥٩ أبعاد مشكلة العصور الوسطى على ضوء نظرية هنري بيرين، مجلة التاريخ والتربية الوطنية، التاريخ، أوروبا، أوروبا عبر التاريخ.http//mtarekh١.yoo٧.com/t٩٧٨topic، http://hardan.yoo٧.com/t٥٩-topic

٦٠ الموسوعة العربية العالمية

٦١ مشكلة العصور الوسطى على ضوء نظرية هنري بيرين، مجلة التاريخ والتربية الوطنية، التاريخ، أوروبا، أوروبا عبر التاريخ.http//mtarekh١.yoov.com/t٩٧٨topic، http://hardan.yoov.com/t٥٩-topic

٦٢ مالك بن نبي،شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين،دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، ص٥٤،٥٥، http://www.ayamnalvlwa.net/forum/index.php?topic=٣٠٧٧.٢٥ wap٢;و حازرلي أسماء:

٦٣ مراجعات كتب: أوروبا المعاصرة و الإسلام، رضوان السيد، مجلة التسامح، نحو خطاب إسلامي متوازن، http://science-islam.net/article.php٣?id_article=٩٠٧&lang=ar

٦٢. محمد أركون: الإسلام- أوروبا- الغرب رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، http://www.tabeeri.com/page/main٢.html/_/articles

٦٥ نقله عن هنري بيرين. محمد وشارلمان. المطبوعات الجامعية الفرنسية.٢٠٠٥ (Henri Pirenne : Mahomet et Charlemagne .P.U.F ٢٠٠٥)

٦٦ راجعhttp://www.alawan.org ،هل نحن وأوروبا حضارة واحدة؟، بقلم :هاشم صالح، السبت ١٩ حزيران (يونيو) ٢٠١٠

٦٧ راجع http://zouakine-zaman.jeun.fr/t٢٨٠٥-topic

٦٨ صحيفة الوسط البحرينية - العدد ٢٧٠٨ - الخميس ٠٤ فبراير ٢٠١٠م الموافق ٢٠ صفر ١٤٣١هـ، فلاسفة الأنوار والإسلام (٢ - ٣(بغداد - حسن الهنداوي، من اللاهوت إلى الإيديولوجيا.

٦٩ كتب ومقالات أنور الجندي، http://sh.rewayat٢.com/public/Web/٥٨٩٦/٠٠١.htm